فرانز فانون

1961 - 1925

لم يكن فرانز فانون الثائر والمفكر صاحب الكتاب الشهير "المعذبون في الأرض" عربيا جزائرياً. كلا. فهو في الأصل من جزيرة المارتنيك الواقعة في منطقة الكاراييب. لكنه صار عربياً حين انتسب إلى الثورة الجزائرية منذ اندلاعها في عام 1954. وصار أحد كبار المنظِّرين لها وأحد رموزها. ومن يقرأ كتابات فرانز فانون، ومن يقرأ سيرة حياته منذ طفولته وشبابه الباكروصولاً إلى المرحلة التي أصبح فيها قادراً على تحديد موقعه في الحياة، يستطيع أن يدرك أهمية الرجل كمواطن مارتنيكي صاحب البشرة السوداء الأقل سواداً من بشرة الإفريقي، ويدرك أهميته كمواطن جزائري بالموقف وبالقرار وبالموقع وبالمشاركة في الثورة الوطنية التحررية للشعب الجزائري. إلاَّ أنَّ أهميته لا تنحصر في كونه أحدث ذلك الانتقال من وطن إلى وطن آخر، دون أن ينسى وطنه الأول ودون أن ينسى لونه الأسود الأقرب إلى السمار. بل إن قيمته الأساسية إنما يحددها الفكر الذي أسس له في كتاباته، منذ الكتاب الأول الذي صدر له في عام 1952 تحت عنوان "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" حتى آخر وأهم كتبه الذي صدر في عام 1961، العام الذي غادر فيه الحياة، وكان بعنوان: "المعذبون في الأرض". في هذا الكتاب الأخير تتوضح وتترسخ أفكار فانون التي جعلت منه ما يشبه " كتاب" الحركات الثورية في البلدان المناضلة شعوبها من أجل التحرر من نير الاستعمار، والمناضلة بعد نيل الاستقلال من أجل التحرر من التخلف الذي أورثها إياه الاستعمار خلال وجوده المزمن في تلك البلدان. وكان لفانون كتاب آخر لا يقل أهمية عن كتابيه الآخرين هو: "خمس سنوات من الثورة الجزائرية" صدر في عام 1959. وقد منعت كتبه كلها بما في ذلك كتابه الأخير. وقد ترك منع كتب فانون تأثيراً عميقاً في نفسه، وأحدث في نفسه الكثير من المرارات قبل أن يغادر الحياة، وقبل أن يقرأ التعليقات المهمة التي استقبل بها كتابه الأخير بعد صدوره في الفترة القصيرة التي أعقبت وفاته. وكان فانون قد

أصيب في العام الأخير من حياته (1961) بمرض سرطان الدم وتوفي متأثراً به عن 36 عاماً.

لم أكن أعرف شيئاً عن فرانز فانون قبل وفاته في عام 1961، ولا عن أي من كتبه. إلاَّ أن إقامتي في فيينا بين عامي 1962 و1964 هي التي عرَّفتني إلى ذلك الثائر والمفكر الكبير حين عثرت بالصدفة في عام 1963 على كتابه "المعذبون في الأرض" باللغة الفرنسية في إحدى المكتبات العامة في فيينا. قرأته بشغف. ولفت نظري، أنا اليساري القادم من العالم العربي، أن هذا الرجل يتحدث بلغة مختلفة عن لغتنا نحن اليساريين من دون أن يهز عصبيتنا الإيديولوجية، رغم أنه يعطي للفلاحين الدور الأول في الثورة خلافاً لما كنا نعتقد أن هذا الدور هو موضوعياً للطبقة العاملة الأكثر انتظاماً وحجماً ووعياً من طبقة الفلاحين. أدهشني منطق فانون من دون أن أتبنى كل أفكاره. واحتفظت بالكتاب، وقرأته أكثر من مرة. ولا تزال تلك النسخة الأصلية من الطبعة الأولى تحتل مكانها في مكتبتي حتى اليوم. وتشكل مقدمة جان بول سارتر للكتاب جزءاً من الكتاب بالنظر لكون سارتر قد تبنى الكثير من آراء فانون، وساهم في لفت الأنظار إليه، وجعله يتبوأ بعد وفاته المكانة المرموقة التي احتلها في عالم النظريات الثورية لبلدان العالم الثالث.

وقبل أن أدخل في عرض بعض أفكار فانون أرى من المفيد إعطاء القارئ صورة عن سيرته التي قاده التطور في مراحلها المختلفة إلى أن يصبح ذلك المفكر الثوري المرموق.

وُلد فرانز فانون في عام 1925 في جزيرة المارتينيك الواقعة في سلسلة جزر الأنتيل في منطقة الكاريبيب. والمارتينيك مثل شقيقاتها في جزر الأنتيل وقعت تحت الاحتلال الفرنسي في عام 1636. ثم أصبحت مع شقيقاتها مقاطعة فرنسية في عام 1946. وما تزال حتى اليوم جزءاً من فرنسا بقرار من سكانها الأصليين ذوي البشرة السوداء. واسم فرانز الذي حمله فانون يعود في الأصل إلى منطقة الإلزاس

في فرنسا. فوالدته كانت مولوداً غير شرعي لأن والدتها الإلزاسية كانت قد تزوجت من رجل ملون من دون موافقة أهلها. وكانت بشرة فرانز أكثر سواداً من أخوته. وترك لونه فيه، وتمايزه عن أخوته، أثراً في نفسه ظلَّ يرافقه لفترة طويلة من حياته. ولم تخلُ أفكاره من تأثير لونه فيها. وهو يشير في كتابه "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" إلى تأثير اللون في حياته بالكلمات التالية: "في جزر الأنتيل لا تستغرب سماع الكلمات التالية على لسان الأمهات: هو الأكثر سواداً بين أولادي، أي أنه الأقل بياضاً". وكانت والدته ذات مزاج صعب. وكانت سلطوية. أما والده فكان أكثر رحابة وأقل سلطوية وأقل صرامة من الوالدة. وكان ماسونياً. في حين أن فرانز كان منذ طفولته مرهف الإحساس. غير أنه سرعان ما تحوَّل في شبابه إلى ولد صعب. وصار عدائياً وشرس الطباع وقليل الصبر. وكان يستخدم العنف في عراكه مع أقرانه. لكنه كان منذ شبابه الباكر شغوفاً بالبحث عن المعرفة حيث تتوفر له الإمكانية للحصول عليها وفي أقل وقت ممكن. أنهى دراسته الابتدائية في العاصمة "فوردي فرانس" (Fort de France). ثم أنهى دراسته الثانوية في مدرسة اللاييك، وذلك في عام 1943. وفي عام 1940 شهد دخول قوات فيشي الفرنسية إلى الجزيرة بعد سقوط باريس تحت سيطرة ألمانيا وتشكيل حكومة بيتان المتعاونة مع الاحتلال النازي. وكان أساتذته يلقنون تلاميذهم، وفرانز منهم، المواقف الوطنية المعادية للنازية ولحكومة فيشي ولجيشها. وكانت أشكال التعبير عن الموقف الوطني في كتابات ومواقف الأساتذة تثير الاعتزاز بالانتماء إلى الوطن المارتينيكي والاعتزاز بثقافته وباللون الأسود لبشرة أبنائه.

في عام 1943 ذهب فانون إلى جزيرة الدومنيكان، وانضم كمجند إلى جيش فرنسا الحرة بقيادة الجنرال شارل ديغول، وعاد إلى المارتينيك محرِّراً. وفي عام 1944 ذهب في إطار خدمته العسكرية جندياً في الجيش الفرنسي إلى الجبهة الأوروبية في الحرب. واكتشف، وهو في الجندية وعلى الجبهة في مقاومة النازية،

أن التمييز في جيش فرنسا الحرة هو ذاته في جيش فيشي الموالي للنازية، وأنه لا فرق بين ديغول وبيتان. ومع ذلك فقد تلقّى في نهاية الحرب وسام "صليب الحرب" مكافأة له على دوره في أحد المواقع العسكرية. عاد فانون إلى المارتينيك بعد عامين من الخدمة العسكرية. ورقي إلى رتبة كابورال. وأعطي منحة لمتابعة دراسته الجامعية في عام 1946. لكن وفاة والده في عام 1947 أدخلته في صعوبة. ذلك أن المنحة التي أعطيت له لمتابعة دراسته الجامعية لم تكن تكفي. وحين طلب من والدته أن تساعده في سد العجز رفضت، وآثرت تقديم المساعدة لباقي أخوته من دونه. ومع ذلك ظلَّ مصمماً على الدراسة. وبدأ حياته الجامعية بدراسة طب الأسنان. ثم انتقل إلى الطب العام. وانتهى به المطاف في دراسة الطب النفسي. وكان قد اختار مدينة ليون الفرنسية لمتابعة دراسته لأنها كانت تضم ملونين أقل من باريس. وفي ليون أقام أول علاقة له بمجموعات يسارية. ثم انضم إلى حلقات تروتسكية. ولمع في نشاطه السياسي كيساري. وفي ليون أقام علاقة مع فتاة فرنسية وأنجب منها طفلة. لكنه رفض أن يتزوج من الفتاة. وظلَّ برغم موقفه ذاك يلتقي بابنته وبوالدتها. وفي عام 1952 تزوج من امرأة أخرى. وظلَّت هي زوجته حتى وفاته. وذهبت معه إلى الجزائر. وصارت مثله مواطنة جزائرية وعضواً في جبهة التحرير الوطني الجزائرية. وهي كانت إمرأة مثقفة. ومارست تأثيراً كبيراً عليه.

مارس فانون الكتابة منذ شبابه الباكر للتعبير عن نفسه وعن أفكاره وعن مشاعره وللتواصل مع الآخرين. وكانت قراءاته تدله على المصادر الفكرية التي تركت تأثيرها على أفكاره. تأثر بأفكار هيغل وماركس ولينين وتروتسكي ونيتشه. كما تأثر بالوجودية وبرموزها الفلسفية المعروفة. وكان من بين تلك الرموز جان بول سارتر بالذات حيث كان يتابع كتاباته في مجلة "العصور الحديثة" التي كانت قد تأسست في عام 1946. وكانت تلك المجلة منبراً مهماً للفكر الوجودي وللفكر التحرري

الثوري. وكانت تنشر كتابات ماركسية أو متأثرة بالماركسية بما في ذلك بعض كتابات لسارتر نفسه كانت تحمل نكهة ماركسية.

كان من جملة تأثيرات تلك الأسماء الكبيرة على فانون أنه أخذ في شكل انتقائي بعض أفكاره من كل منهم وصنع منها بعض أفكاره الخاصة به التي ظلت في حقيقتها أفكاراً انتقائية، أي أفكاراً فيها مزيج من كل تلك الأفكار التي تأثر بها خلال قراءته لأولئك الكبار في عالم الفكر الإنساني.

رغم المعاناة التي ولّدها عنده لونه الأسود فإنه لم يكن يرى التمييز أساساً في اللون بين أسود وأبيض وسوى ذلك من ألوان أو هكذا أحبَّ أن يقنع نفسه. إذ اعتبر أن أساس التمييز هو طبقي، أي أنه يأتي من العامل الاقتصادي كعامل أساسي في التمييز. ومن هنا فإن وعيه لذاته ووعيه الطبقي قد امتزجا في صورة تلقائية.

في الجزائر تحول فرانز فانون إلى شخصية فكرية مرموقة في جبهة التحرير الوطني الجزائرية. وصار جزائرياً بالمعنى الكامل للمواطنية. ودخل في نسيج الحياة الجزائرية. وكتب الكثير. كتب في دعم الثورة وكتب في التعريف بفكر الثورة ذاتها وفي الدفاع عنها. وكتب حول الظاهرات التي كانت ترافق الثورات الوطنية التحررية في البلدان المستعمرة، مفسراً من دون تبرير العنف الذي كانت تستخدمه الشعوب الثائرة المناضلة من أجل التحرر، منتقداً إ ياه في الوقت عينه. لكنه، إذ يقارن عنف الشعوب المستعمرة بعنف الدول التي كانت تستعمرها، فإنه يقف إلى جانب تلك الشعوب من دون تحفظ. ومع ذلك فقد ظل من حيث المبدأ ضد العنف وضد الأشكال التي يتخذها العنف في نضال الشعوب من أجل تحررها . وقد استحضر الأمثلة التي برزت في حرب الجزائر من اعتداء على مدنيين ومن أساليب كان يراها نقيضة لمبدأ الحرية والتحرر. وظل في الوقت عينه متعاطفاً مع الشعب الجزائري المقهور عبر عقود طويلة من الزمن، الممنوعة عليه حريته والمحروم من حقه في الحصول على استقلاله. كما استحضر في هذا السياق ثلاثة أمثلة على

وحشية المستعمرين. الأول هو قتل 45 ألف مواطن جزائري في مدينة سطيف في عام 1945. والثاني هو قتل 90 ألف من مواطني مدغشقر في عام 1947. والثالث هو قتل 200 ألف مواطن في كينيا في عام 1952. حصل ذلك كما يقول من دون أن يكترث العالم به: "ذلك أن التناقضات الدولية لم تكن في تلك الأيام الحاسمة تناقضات قاطعة إلى درجة كافية".

في الجزائر ذهل فانون ببدائية السكان الأصليين. فاكتشف حقيقة الاستعمار. وبدأ رحلته في البحث عن الأساليب التي تؤدي إلى الإصلاح الاجتماعي. لكنه بالمقابل رأى أن لحرب التحرير أهمية كبيرة في النضال من أجل الخلاص من الاستعمار الذي يشكل السبب الأساسي في تلك الأوضاع. وأطلق شعاره المعروف: "أيها السكان الأصليون في جميع البلدان المتخلفة اتحدوا".

يناقش فانون في مقدمة كتابه "خمس سنوات على الثورة الجزائرية" الأخطاء التي وقعت فيها الثورة في شكل ردود فعل بعض مقاتليها ضد ذلك النوع المتوحش الذي مارسه المستعمرون في قهر شعوبهم. يقول مفسراً لا مبرراً بل ناقداً: " بيد أن جبهة التحرير الوطنية لم تخش، في اللحظات التي كان الشعب يعاني فيها من أشد الهجمات الاستعمارية حدة، من إلغاء بعض أشكال العمل، وتذكير الوحدات المنظمة، على الدوام، بقوانين الحرب العالمية. ذلك أن الشعب المستعمَر يجب عليه، في الحرب التحريرية، أن يكسب، ولكن يجب عليه أن يفعل ذلك بنظافة، وبدون "همجية". فإن الشعب الأوروبي الذي يعذِّب هو شعب ساقط خائن لتاريخه. أما الشعب المتخلف الذي يعذِّب فإنه يؤكد طبيعته، يقوم بوظيفته كشعب متخلف. ويكون الشعب المتخلف مضطراً، إذا هو لم يشأ أن تحكم عليه "أمم الغرب" أخلاقياً، إلى أن يمارس عملاً مكشوفاً، نظيفاً، في الوقت الذي يكون خصمه فيه ممعناً، وهو في راحة من ضميره، وراء اكتشافات وسائل جديدة من الرعب لا حد لها. وعلى الشعب المتخلف أن يبرهن، بقوة معركته، على قابليته لأن ينصب من نفسه، بصفته

يشكل أمة، قاضياً على نفسه، وأن يبرهن، في الوقت ذاته، بنقاء كل حركة من حركاته، وحتى في التفاصيل الدقيقة، على أنه الشعب الأكثر صفاءً والأكثر تحكماً بزمام نفسه. ولكن هذا كله أمر جد عسير. ولأننا نبتغي جزائر ديمقراطية ومتجددة، ولأننا نعتقد بأنه لا يمكن للمرء أن ينهض ويتحرر في ناحية ما وينحط في ناحية أخرى، فإننا، والقلب يعتصر ألماً، نحكم على الأخوة الذين اندفعوا في العمل الثوري بضراوة تكاد أن تكون فيزيولوجية، يولدها ويرعاها اضطهاد مزمن بعمر العصور. إن الناس الذين يدينوننا، أو الذين يأخذون علينا تلك الحواشي السوداء في الثورة، يجهلون مأساة الرجل المسؤول، المريعة، الذي يجب عليه أن يوقع عقوبة ضد وطني مذنب مثلاً، قتل خائناً مشهوراً، دون أن يكون قد تلقَّى الأمر بذلك، أو لأنه ارتكب أمراً أكثر خطورة، أدى إلى قتل امرأة أو طفل. وهذا الرجل الذي يجب أن يحاكم دون الرجوع إلى محاكمات ودون قانون، وإنما بالاستناد إلى الضمير وحده الذي يختلج به صدر كل فرد بما يجب عمله وما يجب أن يكون ممنوعاً، ليس رجلاً جديداً في جماعة المعركة. لقد سبق له أن قدم، منذ عدة شهور، براهين لا تدحض، في نكران الذات وفي الوطنية والشجاعة. ومع ذلك فيجب أن يحاكم. ويجب على المسؤول، الممثل الأعلى للتنظيم القائد، أن يطبق التعليمات. وعليه أحياناً، أن يكون هو المدعي أيضاً، باعتبار أن أعضاء الوحدة الآخرين لم يتقبلوا عبء اتهام هذا الأخ أمام المحكمة الثورية.إنه ليس من السهل، باقل قدر ممكن من الأخطاء، قيادة كفاح شعب، زعزعته بقسوة مائة وثلاثون سنة من السيطرة، ضد عدو حازم وضار إلى هذا الحد، كالاستعمار الفرنسي. ليست العلاقات الجديدة هي إذن استبدال همجية بهمجية أخرى، وسحق إنسان بسحق إنسان آخر. فما نريده، نحن الجزائريين، هو اكتشاف الإنسان فيما وراء المستعمر، هذا الإنسان الذي هو في ذات الوقت، المنظم والضحية لنظام كان قد كتم أنفاسه وألزمه الامتناع عن الكلام. أما نحن فإننا قد أعدنا، منذ شهور طويلة، الاعتبار للإنسان الجزائري المستعمَر، وانتزعناه من براثن

الاضطهاد المزمن والحقود. وهبّينا واقفين، وها نحن نتقدم الآن. فمن ذا الذي يستطيع أن يعيدنا إلى العبودية؟ نريد جزائر تفتح ذراعيها للجميع، متأهبة لمساعدة جميع العبقريات. إننا نريد هذا، ولسوف نفعله. ولا نعتقد بوجود أية قوة، في أي مكان كان، قادرة على منعنا من ذلك".

في كتابه "المعذبون في الأرض" يستأنف فانون أبحاثه ويعزز ويرسخ أفكاره في ضوء تجربته الجزائرية. ويحاول أن يضع نظرية، أو شبه نظرية، للثورة في العالم الثالث. ورغم أنه تأثر بالفكر الماركسي من خلال قراءاته لماركس ولينين وتروتسكي، فإنه يتحدث بكثير من الشك حول دور الطبقة العاملة في الثورة الوطنية التحررية في بلدان العالم الثالث المتخلفة والضعيفة التطور والمحكومة لأزمنة طويلة من قبل الاستعمار والغارقة في تقاليدها التي لا يمكن للمرء أن يتنكر لها ويستخف بها. وهو يعتبر أن الفلاحين كطبقة هم القوة الأكثر ثورية لأنهم يعيشون ويعملون خارج المدن وبعيداً عنها وعن التأثير الذي تمارسه حياة المدنية على سكانها، بما في ذلك الطبقة العاملة الثورية ذاتها. ويرى في تفسير ذلك وفي تبريره أن الاستعمار يركز جهوده في المدينة على فئاتها كلها، بما في ذلك طبقة العمال وفئات المثقفين وحتى عامة الشعب. الأمر الذي يراه فانون عاملاً يزيد في ضعف الطاقة الثورية لدى هذه الفئات جميعها. في حين أن الفلاحين سكان الأرياف يظلون خارج اهتمام سلطات الاستعمار. بل هم يبقون الأكثر عرضة للاضطهاد والنسيان وأكثر ارتباطاً بالتخلف في الحياة وفي مجالاتها كافة. وهو يدعو في ضوء اجتهاداته هذه جميع الشعوب في البلدان المتخلفة لأن تنضوي تحت قيادة الفلاحين لإنجاز ثورتها الوطنية التحررية. لكنه يحذر من اختصار الإنسان وراء الزعيم الأوحد وسيادة الفرد، والبقاء في أسر الماضي القومي القديم وعاداته، والخضوع للثقافة الآتية إلى تلك الشعوب من خارجها. فالثقافة بالنسبة إليه هي ثقافة الثورة.

ويتابع فانون في كتابه الأخير، الذي يستكمل فيه نظريته حول الثورة، الدفاع عن فكرته حول دور الفلاحين في قيادة الثورة. ويقدم شروحاً عديدة. كما يقدم أمثلة مأخوذة من سياق حركة التاريخ.

يقول في أحد مقاطع كتابه هذا: " فالقيمة الأساسية عند الشعب المستعمَر، إنما هي الأرض، لأنها هي القيمة المحسوسة الملموسة، الأرض التي تكفل الخبز، والتي تكفل الكرامة طبعاً. ولكن الكرامة التي تكفلها لا شأن لها بكرامة "الشخصية الإنسانية" التي يتحدث عنها الاستعماريون. إن الشعب المستعمَر لم يسمع يوماً بهذه الشخصية الإنسانية الخيالية. وما رآه على أرضه بأم عينه هو أنه يُعتقل لغير ذنب جناه، وانه يُضرب، وأنه يُجوَّع. إنه لم يرَ في يوم من الأيام أستاذاً من أساتذة الأخلاق، ولا رجلاً من رجال الدين المسيحي، يأتي ليتلقى عنه اللطمات، أو ليعطيه قسماً من خبزه. الأخلاقية عند المستعمَر هي أن يتخلص من غطرسة المستعمِر، هي أن يحطم عنفه الشامخ، أي أن يطرده من الميدان طرداً كاملاً".

ثم يتساءل، في معرض تأكيده على دور الفلاحين في قيادة الثورة، عن الظروف التي تشير إلى نضج الثورة، وعن الطبيعة التي تساهم في تطوير تلك الثورة. فيقول: "هناك، على مستوى التكتيك السياسي وعلى مستوى التاريخ، مسألة نظرية هي على جانب عظيم من الأهمية، يطرحها في العصر الراهن تحريرُ المستعمَرات. هذه المسألة هي: متى يمكن القول إن الوضع قد نضج إلى الحد الذي يجب فيه القيام بحركة تحرير وطني! ومن هي الطليعة التي يجب أن تقوم بهذه الحركة؟ فلأن القضاء على الاستعمار قد اتخذ أشكالاً مختلفة وصوراً متعددة فإن العقل يتردد إزاء هذه المسألة، ويمتنع عن القطع برأي فيما هو قضاء حقيقي على الاستعمار، وفيما هو تصفية كاذبة للاستعمار. وسنرى أن على الإنسان الذي قرر الانخراط في المعركة أن يحدد الوسائل والتكتيك، أي أن يعين السلوك والتنظيم، وإلاَّ لم يكن الأمر إلا اندفاعاً أعمى، مع ما يستتبعه هذا الاندفاع الأعمى من مخاطر الرجعة

والانتكاس. ما هي القوى التي تقترح على المستعمر في فترة الاستعمار أن يصب عنفه في طرق جديدة وأن ينفق طاقاته في أعمال جديدة؟ هذه القوى هي أولاً الأحزاب السياسية والنخبة المثقفة أو النخبة التجارية. ونحن نعلم أن ما يميز بعض التشكيلات السياسية هي أنها تنادي بمبادئ، ولكنها تمتنع عن إطلاق شعارات. وكل النشاط الذي تقوم به هذه الأحزاب السياسية الوطنية إنما هو في فترة الاستعمار نشاط من النوع الانتخابي. هو سلسلة من المقالات الفلسفية السياسية حول فكرة حق الشعوب في تقرير مصيرها، وحق البشر في الكرامة والخبز. هو ترديد لا ينقطع للمبدأ القائل "إن لكل فرد صوتاً". إن الأحزاب السياسية الوطنية لا تلحُّ أبداً على ضرورة استعمال القوة، لأن هدفها ليس قلب النظام القائم واستئصاله من جذوره. إن هذه الأحزاب السياسية أحزاب مسالمة، تنادي بالمشروعية، وتناصر في حقيقة الأمر النظام... الجديد، ولا تزيد على أن توجِّه إلى البرجوازية الاستعمارية هذا الطلب: "أعطونا مزيداً من السلطة". أما النخبة المثقفة، فهي في مسألة العنف ليس لها وجه تُعرف به. هي عنيفة في الأقوال، إصلاحية في المواقف والأعمال. إن المنظمات السياسية الوطنية البورجوازية تقول شيئاً وتعني غيره. ويجب أن نفسر هذه الخاصة التي تميز الأحزاب السياسية الوطنية بأمرين، في آن واحد، هما نوع قادتها ونوع قاعدتها. إن قاعدة الأحزاب السياسية الوطنية تتألف من أفراد من سكان المدن. وهؤلاء العمال والفلاحون وأصحاب الحرف والتجار الذين بدأوا يستفيدون من الوضع الاستعماري، ولو استفادة ضئيلة، هؤلاء لهم مصالح خاصة. وما تطالب به هذه القاعدة الشعبية في الأحزاب السياسية إنما هو تحسين أحوالها وزيادة أجورها. والحوار بين هذه الأحزاب السياسية والاستعمار لم ينقطع يوماً. فهي تبحث في تحسين الأحوال وفي التمثيل الانتخابي، وفي حرية الصحافة وحرية الاجتماع. إنها تبحث في الإصلاحات. ولذلك يجب أن لا يدهشنا أن نرى عدداً كبيراً من السكان الأصليين ينتمون إلى فروع المنظمات السياسية الموجودة في البلد المستعمِر. إن

هؤلاء ينادون بشعار مجرد: "السلطة لطبقة البروليتاريا"، ناسين أن الشعارات الوطنية هي التي يجب أن تكون أساس المعركة في منطقتكم".

ثم يشير فانون إلى ضعف الأحزاب وإلى أسباب ضعفها سياسياً وتنظيمياً، فيقول: "إن صعف الأحزاب السياسية ليس ناشئاً فقط من أنها تستعمل استعمالاً آلياً هذا التنظيم الذي يقود الطبقة العاملة في مجتمع راسمالي بلغ درجة عالية من التصنيع. إن هناك على صعيد هذا النموذج من التنظيم تجديدات وتكييفات كان ينبغي أن تنشأ. إن الخطيئة الكبرى، إن الآفة الكبرى التي تعيب الأحزاب السياسية في المناطق المتخلفة هي أنها تتجه باهتمامها الأول إلى العناصر الواعية من الشعب: الطبقة العاملة في المدن، أصحاب الحرف، الموظفين، إي إلى جزء صغير من السكان لا يتجاوز واحداً في المائة". ويضيف: "إن الأكثرية الساحقة في الأحزاب الوطنية تشعر تجاه الجماهير الريفية بحذر كبير، وارتياب شديد. إنها تحسّ أن هذه الجماهير عاطلة عقيمة. وما يلبث أعضاء الأحزاب الوطنية (من عمال المدن والمثقفين) أن يصبح رأيهم في سكان الأرياف كرأي المستوطنين".

ويتابع فانون فكرته فينتقل إلى إبراز صورته هو لموقف الفلاحين من المدينة وسكانها فيقول:" والفلاحون يسيئون الظن بابن المدينة ويحذرون منه. إنه يرتدي ملابس كملابس الأوروبيين. ويقطن أحياناً في الحي الأوروبي. لذلك ينظر إليه الفلاحون نظرتهم إلى إنسان خرج من فومه، وهجر كل ما هو تراث قومي. إن الفلاحين ينظرون إلى سكان المدن نظرتهم إلى "خونة"، نظرتهم إلى أناس "باعوا أنفسهم". فهم متفاهمون مع المحتل. يحاولون في إطار النظام الاستعماري أن يحققوا النجاح. لذلك نسمع الفلاحين في كثير من الأحيان يصفون أبناء المدن بأنهم أناس لا أخلاق لهم. ولسنا هنا بصدد ذلك التعارض المعروف بين الريف والمدينة. وإنما نحن هنا بصدد تعارض بين المستعمَر المحروم من منافع الاستعمار، وبين المستعمِر الذي يرتب أموره بحيث ينال من الاستغلال الاستعماري نصيباً".

ثم يعود فانون ليتابع صب جام غضبه على الأحزاب الوطنية، متهماً إياها في فهمها لنفسية الجماهير الريفية ولمزاجها ولعلاقاتها المحلية. وهي الأسباب التي قادت هذه الأحزاب دائماً إلى الفشل. فيقول:" إن الأحزاب السياسية لا تتوصل إلى ترسيخ قواعد منظماتها في الأرياف. فهي بدلاً من أن تستعمل البنيانات الموجودة من أجل إعطائها مضموناً قومياً أو تقدمياً، تحاول، في نطاق النظام الاستعماري، أن تقلب الواقع التقليدي رأساً على عقب. إنها تتخيل أن في وسعها أن تطلق الأمة من عقالها وأن تبعثها على المسير، في حين أن حلقات النظام الاستعماري ما تزال مطبقة عليها، جاثمة فوقها. إن هذه الأحزاب لا تمضي إلى لقاء الجماهير. إنها لا تضع معارفها النظرية في خدمة الشعب، وإنما تحاول أن تنظم الجماهير وفقاً لمخطط لم بنبثق من التجربة. وهكذا تراها ترسل من العاصمة إلى القرى، على حين غرة، مسؤولين مجهولين أو شباناً صغاراً تنتدبهم السلطة الحزبية المركزية للذهاب إلى القرية أو الدوار، كأنما هي تريد أن تقود القرية أو الدوار كما تقاد خلية من خلايات الحزب في مصنع من المصانع. وهي بذلك تتجاهل الزعماء التقليديين، وربما إهانتهم في بعض الأحيان. إن تاريخ الأمة المقبلة يطغى طغياناً كبيراً على التواريخ المحلية الصغيرة التي هي الواقع الوطني الوحيد الراهن. في حين أن من الواجب على هذه الأحزاب أن توفق توفيقاً منسجماً بين تاريخ القرية وتاريخ المنازعات التقليدية، بين القبائل والعشائر وبين النضال الحاسم الذي تدعو الشعب إلى خوض غماره... ويأتي هذا الإخفاق مصداقاً "للتحليل النظري" الذي قامت به الأحزاب الوطنية. فالنازلة، التي نزلت بالحزب حين حاول تنظيم الجماهير الريفية، تعزز حذره من الجماهير الريفية وتقوّي تهجمه على هذا الجزء من الشعب. وبعد انتصار كفاح التحرير الوطني تتجدد هذه الأخطاء وتغذى الميول إلى اللامركزية وإلى الانفصالية. وتحل محلّ العصبية القبلية التي كانت سائدة في عهد الاستعمار عصبية إقليمية تسود في عهد التحرير الوطني، منادية بشعارها الدستوري: الفدرالية".

أردت بهذا العرض لموقف فانون من الأحزاب الوطنية في البلدان المستعمرة والمتخلفة عموماً، ومن علاقة الريف بالمدينة، ومن الدور الذي يضطلع به الفلاحون وسكان الريف في النضال الثوري التحرري، أن أبرز المعالم الأساسية لفكرته أو لنظريته عن الثورة. على أن ما أوردته من استشهادات بأقواله غير كافٍ لتوضيح أفكاره رغم أن هذه الاستشهادات تشير إلى بعض المعالم الأساسية لتلك الأفكار. فهي استشهادات مبتسرة من كتاب كبير، هو آخر كتبه الذي احتوى على خلاصة أفكاره التي كدستها تجربة نضاله في الجزائر، هو المارتينيكي الأسود الذي صار جزائرياً بالانتماء الثوري إلى قضية وطنية تحررية آمن بها ورافقها حتى عشية انتصارها. وكان يحلم في أن يكون أحد رموز تلك الثورة، ليس فقط خلال النضال، بل في مرحلة انتصارها ليتابع استخلاصاته من نتائجها بعد الانتصار. ولم يكن يعنيه الاحتفال بالنصر بقدر ما كان يشغله ويقلقه شكل الممارسة من موقع القيادة وموقع القرار في الوضع الجديد. وكان فانون قد شكك في كثير من كتاباته، بما في ذلك في هذا الكتاب بالذات، من قدرة القيادات التي ستستلم السلطة بعد الاستقلال على متابعة النضال من أجل التحرر الحقيقي من إرث الماضي الاستعماري. وهو كان مصيباً في ذلك كما أثبتت تجربة الجزائر وتجارب عديدة أخرى في القارة الأفريقية وفي مختلف بلدان العالم الثالث.

إلاَّ أن الملفت في كتاب "المعذبون في الأرض" هو ما جاء في المقدمة الطويلة التي وضعها للكتاب جان بول سارتر الذي يشارك فانون في موضوعات أساسية، كما تشير إلى ذلك هذه الفقرات من مقدمته للكتاب:"... فإن الفلاحين في هذه المناطق التي تعمَّد الاستعمار أن يوقف فيها التقدم، سرعان ما يكونون هم الطبقة الراديكالية إذا هم ثاروا. ذلك أنهم يعرفون الاضطهاد عارياً، ويقاسون منه أكثر كثيراً مما يقاسي عمال المدن. ومن أجل أت تحول بينهم وبين الموت جوعاً لا يكفيك إلاَّ أن تهدم جميع الأنظمة. ومتى انتصرت هذه الطبقة كانت الثورة الوطنية

اشتراكية. ومتى أمكن وقف اندفاعاتها، ومتى تسلمت البورجوازية المستعمرة زمام السلطة، بقيت الدولة الجديدة في أيدي الاستعماريين رغم السيادة الصورية".

وكثيراً ما يتوجه سارتر في المقدمة بالحديث إلى الأوروبيين ساخراً منهم ومن الوهم الذي يسيطر عليهم بأنهم صانعو حضارة، وانهم قادرون على تصديرها في صيغة استعمارهم للشعوب التي يدعون تمدينها. يقول سارتر في مكان آخر من المقدمة بأن الأوروبيين حين يقرأون فانون سوف يستفيدون منه." سوف يوضح لهم توضيحاً كاملاً أن هذا العنف الجامح ليس زوبعة سخيفة، ولا هو تيقظ غرائز وحشية، بل ولا هو ثمرة حقد. إن الإنسان نفسه يشكل نفسه تشكيلاً جديداً. هذه الحقيقة، أعتقد أننا علمناها ونسيناها. إن علائم العنف لا يستطيع لين أن يمحوها. إن العنف وحده يستطيع أن يهدمها. والمستعمَر يشفى من عُصاب الاستعمار بطرد المستعمِر بالسلاح. إنه حين ينفجر حنقه يسترد شفافيته المفقودة، ويعرف نفسه بمقدار ما يصنع نفسه. نحن من بعيد نعدّ حربه انتصاراً للتوحش. ولكن هذه الحرب تؤدي بذاتها إلى تحرير المقاتل بالتدريج. فهي تزيل من نفسه ومن خارج نفسه ظلمات الاستعمار شيئاً بعد شيء. إنها منذ تبدأ لا ترحم. فإما أن يظل المرء مذعوراً، وإما أن يجعل غيره مذعوراً. معنى ذلك: إما الاستسلام لانقسامات حياة مزيفة، وإما الظفر بالوحدة الولادية. حين يقبض الفلاحون على البنادق، فإن جميع الخرافات تبهت ألوانها، وإن جميع الممنوعات تنهار واحداً بعد آخر. إن سلاح المقاتل هو إنسانيته. إذ هي أول مرحلة من مراحل الثورة. يجب عليه أن يقتل. إنه حين يقتل أوروبياً يضرب بحجر واحد ضربتين: يزيل مضطهِداً ومضطَهَدًا في آن واحد. إذ يبقى بعد القتل رجل ميت ورجل حر. والذي يبقى حياً يشعر، لأول مرة، بأرض قومية تحت قدميه. ففي هذه اللحظة لا تكون الأمة بعيدة عنه. إنه يراها حيث يمضي، حيث يكون، لا أبعد من ذلك أبداً. إنها تتَّحد بحريته".

فرانز فانون شخصية فذّة في تاريخ الحركة الثورية في بلدان العالم الثالث. وأهمية أفكاره تولدت معه في النضال الثوري الذي انغمس فيه بكل جوارحه. وعاش كل التحولات والمآسي. يضاف إلى ذلك أنه إذ تولدت عنده القناعة بأن بلده المارتينيك غير مؤهل للثورة، قد فتش عن المكان الذي يستطيع أن يمارس فيه نظرياً وعملياً ثورته. وكانت الجزائر المكان الذي اختاره بامتياز، رغم أنه كان يستطيع أن يذهب إلى بلد أفريقي يشاركه معاناة اللون وربما إرث التاريخ القديم والحديث، بما في ذلك الاستعمار الفرنسي ذاته. لكنه رأى بثاقب نظره أن الثورة الجزائرية كانت المكان الأرحب الذي كان عليه أن يختبر فيه أفكاره ونظرياته عن الثورة وتنبؤاته عن مستقبل النظام الاستعماري وعن مستقبل الشعوب التي تتحرر منه.

وفي اعتقادي فإن فانون، الذي تحولت أفكاره ونظرياته إلى تراث، يستحق أن يقرأ من جديد قراءة عميقة. ذلك أنني أشعر أن بعض أفكاره القديمة ما يزال صالحاً كأساس لإعادة التفكير في ما نحن فيه اليوم في عالمنا المعاصر، سواء كان الأمر يتعلق بالبلدان التي خرَّبت قياداتها بعد الإستقلال، بالإستبداد والفساد، أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أم كان يتعلق بالصيغة الجديدة التي يحاول فيها الرأسمال المعولم المتوحش إعادة سيطرته على هذه البلدان في صيغة جديدة. وأظن أن لفرانز فانون شركاء فيما ذهب إليه في بعض أفكاره، سواء ممن اتخذ في كتاباته سمة التنظير، أم من أولئك الذين كانوا قادة سياسيين ذوي استشراف دقيق للمستقبل في بلداننا العربية وفي بلدان أخرى من عالمنا الثالث المهزوم المأزوم المضطرب المتداعي الأركان. وفي أي حال فإن قراءة فانون، مثل قراءة سواه من المفكرين من قامات مختلفة، وقراءة التجارب التي عرفتها شعوبنا، هي حاجة ضرورية في زمن الثورات الحديثة من أجل الذهاب إلى المستقبل في شكل صحيح، أو على الأصح في الشكل الذي تكون فيه الأخطاء أقل ويكون السير في اتجاه التقدم أكثر سداداً.